

## مختارات تعليمية

### القديس نكتاريوس أسقف المدن الخمس

#### نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

#### الطريق الى السعادة

لا شيء أعظم من القلب الطاهر، لأن مثل هذا القلب يصبح عرشاً لله. وما هو أعظم من عرش الله؟ لا شيء بالطبع. وعن أصحاب القلب الطاهر يقول الله: أعيش معهم وأسير بينهم؛ وأكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً (٢ كورنثوس ١٦:٦). إذن مَنْ يمكن أن يكون أسعد من هؤلاء الناس؟ ما الشيء الحسن الذي يمكن أن يفتقروا إليه؟ ألا يجدون كل الأشياء الطيبة ومواهب الروح القدس في نفوسهم المباركة؟ ماذا يحتاجون أكثر؟ لا شيء. في الحقيقة، لا شيء. لأن لديهم أعظم خير في قلوبهم: الله نفسه.

كم هم مخدوعون أولئك الذين يبحثون عن السعادة خارج أنفسهم، في بلاد أجنبية فيسافرون، في الغراء والشهرة، في الممتلكات الكبيرة والمُتَّع، في الملذات وكل الكماليات والأباطيل التي تترك في النهاية طعمًا مرًا. إذا قمتَ ببناء برج السعادة خارج قلبك، فأنت تبني على أرض تهزها الزلازل المستمرة. مثل هذا البناء سوف ينهار بسرعة.

إخوتي وأخواتي، السعادة تكمن في أنفسنا ومباركون هم الذين يدركون ذلك. افحصوا قلبكم وانظروا إلى حالته الروحية. هل فقدتم الجرأة على مخاطبة الله؟ هل ضميركم مضطرب لأنكم لم تحفظوا وصاياه؟ ربما يدينكم لأنكم كنتم منتقدين، أو كذبتهم أو أهملتم واجباتكم تجاه الله وأخيكم؟ تطلعوا وانظروا ما إذا كانت قلوبكم ممتلئة بالشر والأهواء. ربما انزلتكم في مسار متعرج وصخري.

لسوء الحظ، أولئك الذين أهملوا قلوبهم خرموا من كل الأشياء الجيدة وسقطوا في العديد من الشرور. لقد طردوا الفرح وامتلأوا بالمرارة والحزن والهم. لقد طردوا السلام واكتسبوا القلق والاضطراب والخوف. لقد طردوا المحبة ورحبوا بالكراهية. أخيرًا، لقد طردوا كل مواهب وثمار الروح القدس التي تلقوها في المعمودية وتبنوا كل تلك الشرور التي تجعل الناس بائسين وتعساء بالكامل.

أيها الإخوة والأخوات، إن الله الجزيل الرحمة يريدنا جميعًا أن نكون سعداء، سواء في هذه الحياة أو في الحياة الأخرى. لهذا أسس كنيسة المقدسة: ليطهرنا من الخطيئة ويقدّسنا ويصالحنا معه ويمنحنا بركات السماء. فتحت لنا الكنيسة ذراعيها ترحيبًا. إذا كان ضميرنا مثقلًا، فلنسرع إلى الكنيسة. إذا فعلنا

ذلك، فهو على استعداد لأن يرفع العبء الثقيل عنا، ويمنحنا الجرأة على مخاطبة الله، ويملاً قلوبنا بالسعادة والنعيم.

### المعمودية المقدسة

"لأنَّ كُلَّكُمْ الَّذِينَ اغْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبَسْتُمْ الْمَسِيحَ" (غلاطية ٣: ٢٧).

يا لعظمة الحقيقة التي يشير إليها القديس بولس بهذه الكلمات. المسيحيون المعقدون لا يلبسون الإنسان القديم بأهوائه ورغباته الآثمة، بل يرتدون إنساناً جديداً. لقد لبسوا المسيح نفسه، الذي يسكن الآن في قلوبهم. وكلمة "يلبس" هنا لا تشير إلى بعض الملابس الخارجية العادية، بل إلى شيء أكثر عمقاً، شيء من الجوهر، شيء غير قابل للتحويل.

بإيماننا بالمسيح ومعموديتنا، نلبس المسيح نفسه ونصبح أبناء الله، أماكن سكنى الروح الكلي قدسه، هياكل لله، قديسين وكاملين، آلهة بالنعمة. لقد تخلصنا من الفنائية وارتدينا ملابس غير قابلة للتلف. لقد وضعنا جانباً شخص الخطيئة ولبسنا شخص البرّ والنعمة. تخلصنا من الموت وكسونا أنفسنا بالخلود.

لقد تأملنا أيضاً في الالتزامات العظيمة تجاه الله التي أخذناها على عاتقنا بمعموديتنا. نحن ندرك الآن أنه من واجبنا أن نتصرف كأبناء الله وإخوة وأخواتٍ لربنا؛ أن علينا الالتزام بمواءمة إرادتنا مع إرادة الله؛ أننا، كأبنائه، يجب أن نتحرر من الخطيئة؛ أن نحبه بكل قوتنا من أعماق نفوسنا وقلوبنا؛ أن علينا أن نعبده ونسعى أن نتحد به إلى الأبد. هل اعتبرنا حقاً أن قلبنا يجب أن يفيض بالمحبة حتى تفيض هذه المحبة على قلوبنا؟ هل نشعر بأن علينا أن نصبح قديسين وكاملين وصوراً لله، أبناء لله وورثة لملكوت السموات؟

لكل هذه الأسباب، علينا أن نجتهد ألا نكون غير مستحقين لدعوة الله، لئلا نُوبَخ. في الواقع، يا إخوتي وأخواتي، فلنكافح بحماسة وإنكارٍ للذات لكي نغلب. دعونا لا نفقد شجاعتنا، دعونا لا نهمل واجباتنا، دعونا لا نكون جنباء، دعونا لا نرتعد أمام مآزق الحياة الروحية. لأن الله عوننا وهو سيقوينا على طريق الفضيلة الصعب.

### الجهاد الروحي

الهدف من حياتنا هو أن نصبح كاملين وقديسين. لنثبت أننا أبناء الله وورثة ملكوت السموات. يجب أن نتوخى الحذر لئلا، بسبب هذه الحياة الحالية، نحرّم من الحياة الآتية؛ لئلا نهمل هدف حياتنا بسبب هموم الحياة اليومية واهتماماتها. الصوم والسهر والصلاة لا تأتي من تلقاء نفسها بالثمار المرجوة، لأنها ليست هدف حياتنا بل هي بالنسبة لنا وسيلة لتحقيق هدفنا.

زَيَّنُوا شَمُوعَ الْأَعْيَادِ بِالْفَضَائِلِ، احرصوا على إخراج الأهواء من النفس، نظفوا كل وسخ قلوبكم، واحفظوها طاهرة، فيأتي الرب و يقيم فيكم، ليغمركم الروح القدس بعطاياه الإلهية. يا أبنائي الأحباء، فليكن كل اهتمامكم وانتباهكم لهذه الأمور. فلتكن هذه هدفكم ورغبتكم المستمرة. لتكن صلاتكم كلها إلى الله حول هذه الأمور. اطلبوا الرب كل يوم ولكن في قلوبكم لا خارجها. وعندما تجدونه، قفوا بخوف ورعدة كما يفعل الشاروبيم والسيرافيم، لأن قلبكم سيكون عرش الله.

لكي تجدوا الله، تواضعوا على الأرض، لأن الرب يمقت المتكبرين، فيما يحب متواضعي القلب ويزورهم. ولهذا يقول: "إِلَى هَذَا أَنْظُرْ: إِلَى الْمُسْكِينِ وَالْمُنْسَجِحِ الرُّوحِ وَالْمُزْتَعِدِ مِنْ كَلَامِي" (أشعيا ٦٦:٢).

جاهدوا الجهاد الحسن والله يقويكم. في الجهاد، نحدد نقاط ضعفنا وعيوبنا وأخطاءنا. إنه مرآة حالتنا الروحية. إذا لم تجاهدوا فأنتم لا تعرفون أنفسكم. انتبهوا للتجاوزات الصغيرة أيضًا. إذا أصابكم بعض المعاصي بسبب قلة الانتباه فلا تياسوا، بل تعافوا بسرعة؛ اسجدوا أمام الله القادر على تقويمكم. الحزن الشديد هو غطاء للكبرياء. إن الإفراط في الحزن واليأس مضرّ وخطير، وغالبًا ما يفاقمه الشيطان لكي يعيق تقدّم المجاهدين.

إن في داخلنا نقاط ضعف وعواطف وأخطاء عميقة الجذور ورثنا بعضها. لا يمكن قطع أي منها ببعض الأعمال المتشججة أو القلق أو الحزن العميق، بل فقط بالصبر والمثابرة والرعاية والاهتمام. الطريق المؤدي إلى الكمال طريق طويل. صلوا إلى الله أن يمنحكم القوة. تعاملوا مع هفواتكم بصبر، وبمجرد أن تتعافوا، عاودوا الجري مرة أخرى؛ لا تقفوا في نفس المكان، مثل طفل يسقط ويبكي وينوح بلا هوادة.

انتبهوا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. حتى لو استمريتم في الوقوع في خطايا قديمة، فلا تياسوا. العديد من هذه الخطايا قوية، بطبيعتها وعاداتها. لكن يُمكن مع الوقت هزيمتها بما يكفي من الثبات. لا تدعوا أي شيء يجعلكم تيئسون.

## التجارب

يُسمح بالتجارب حتى تُظهر أهواؤنا الخفية نفسها، فنتمكّن من محاربتها وبالتالي شفاء أرواحنا. التجارب هي أيضاً مثال عن رحمة الله. إذًا، ثقوا بالله واطلبوا مساعدته ودعمه في جهادكم. الرجاء بالله لا يقود إلى اليأس. التجارب تجلب التواضع. يعلم الله قدرة كل منا على الاحتمال ويسمح بتجارب تتناسب مع قوتنا. ولكن فلنحرص على أن نكون يقظين ومنتبهين، حتى لا نضع أنفسنا في طريق التجربة من تلقاء ذاتنا. ثقوا بالله الصالح والقدير والحي وسوف يريحكم. بعد التجارب يتبع الفرح الروحي. يراقب الرب كل الذين يمرون بتجارب وأحزان لأجل محبته. لذلك لا تجبنوا ولا تجفلوا.

لا أريدكم أن تحزنوا وتنزعجوا عندما لا تسير الأمور كما تريدون، بغض النظر عن مدى شعوركم بالتبرير. هذا الحزن دليل على وجود الأنانية. احذروا الأنانية التي تختبئ تحت غطاء التبرير. احذروا أيضًا من الحزن في غير محلّه إذا جاء بعد توبيخ مُحَقّق. الحزن الشديد على هذه الأشياء هو تجربة. لكن يكون الحزن حقيقياً بالفعل: عندما ندرك الحالة البائسة التي تتواجد نفسنا فيها. لا علاقة لأي من الأحزان الأخرى بنعمة الله. احرصوا على أن تحرسوا في قلبكم فرح الروح القدس ولا تسمحوا للشربير أن يسكب مرارته فيكم. احذروا. احذروا من أن يتحول الفردوس بداخلكم إلى جحيم.

## الصلاة

مهمتنا الرئيسية، كبشر، هي الصلاة. لقد خُلِقنا لنمجد الله. هذه هي الفريضة الأنسب لنا وهي المهمة الوحيدة التي تفسّر وضعنا الروحي في الوجود. إنها الشيء الوحيد الذي يبرر مكانتنا المتميّزة داخل الخليقة. لقد خُلِقنا لنعبد الله ونشارك في صلاحه وبركاته. كصورة الله التي نحن عليها، نتوق إليه ونسرع برغبة للارتقاء إليه. نحن نَسْعِدُ بالصلوات والترانيم. تفرح الروح والقلب يطفر. كلما صلينا أكثر، كلما تجرّدت النفس من الرغبات الدنيوية وامتألت بخيرات السماء. بقدر ما تبتعد عن الأشياء الأرضية وملذات الحياة، تفرح في بهجة السماء. خبرتنا ومعرفتنا المكتسبة دليل على هذه الحقيقة.

يُسَرُّ الله بالصلوات التي تُقدّم له بالطريقة المناسبة، أي في إدراك كامل لنقصنا وعدم استحقاقنا. لكن هذا الإدراك يتطلب نبذ أنفسنا الشريرة والخضوع لوصايا الله، يتطلب التواضع والجهد الروحي المستمر. ضعوا كل همومكم في يد الله وهو يعولكم. لا تكونوا جناء أو متقلّبين. مَنْ يفحص أعماق روحنا الخفية يعرف رغباتكم ولديه القدرة على تحقيقها كما يعلم هو بشكل أفضل. فقط اسألوه ولا تخافوا. لا تعتقدوا أنكم، بسبب إخلاص رغبتكم، تملكون الحق في التشكي إن لم تُستجَب صلواتكم. الله يهتمّ باحتياجاتكم بطريقة لا تفهمونها. ابقوا هادئين وادعوا الله.

الصلوات والطلبات بحد ذاتها لا تقودنا إلى الكمال. إن الربّ يكملنا عندما يأتي ويقيم فينا إذ نحفظ وصاياه. وإحدى أولى هذه الوصايا هي أن إرادة الله يجب أن تتحقق في حياتنا، لا إرادتنا. ويجب أن يتم ذلك بنفس الدقة التي تظهرها الملائكة في السماء. حتى نستطيع نحن أيضًا أن نقول: "يا رب، لا كما أريد، بل كما تشاء"؛ و"لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض". إن لم يكن المسيح فينا، تقودنا الصلوات والطلبات إلى الضلال.

## السلام

السلام عطية إلهية تُمنح بسخاء للذين يتصالحون مع الله ويلتزمون بوصاياه الإلهية. السلام نور يهرب من الخطيئة التي هي الظلمة. الخطأة لا يكونون مسالمين أبداً. جاهدوا ضد الخطيئة ولا تدعوا أي احتدام للأهواء يزعجكم. إذا هزمتم الأهواء في جهادكم، يصير تزايد التجارب مصدر فرح وسلام جديدين. إذا هُزمتم - لا سمح الله - فحينئذ يبرز الحزن والاضطراب. ولكن مرة أخرى، إذا سادت الخطيئة مؤقتاً بعد صراع شاق، وانتم ثبتتم وانتصرتم، يعود السلام. "إِتَّبِعُوا السَّلَامَ مَعَ الْجَمِيعِ، وَالْقَدَاسَةَ الَّتِي بَدُونِهَا لَنْ يَرَى أَحَدُ الرَّبِّ" (عوانيين ١٢:١٤).

السلام والقداسة شرطان ضروريان لمن يتشوق لرؤية وجه الله. السلام هو الأساس الذي تُبنى عليه القداسة. القداسة لا تستطيع أن تسكن في قلب مضطرب وغازب. عندما يطيل الغضب إقامته في القلب، فإنه يخلق عداوة وكرهية تجاه الإخوة. لهذا يجب أن نتصالح معهم بسرعة، لئلا نُحرَم من نعمة الله التي تُقدّس أرواحنا. إن الذين هم في سلام مع أنفسهم هم أيضاً في سلام مع إخوتهم وفي سلام مع الله. أمثال هؤلاء ممتلئون قداسة، لأن الله نفسه ساكن فيهم.

## المحبة

ابحثوا عن المحبة. اطلبوا المحبة من الله كل يوم، لأنه مع المحبة تأتي كل مجموعة الأمور الصالحة والفضائل الأخرى. أُحِبُّوا وسوف يحبكم الآخرون. امنحوا الله كل قلبكم لتعيشوا في المحبة. "مَنْ يَثْبُثُ فِي الْمَحَبَّةِ، يَثْبُثُ فِي اللَّهِ وَاللَّهُ فِيهِ" (١ يوحنا ٤:١٦). يجب أن تكونوا حذرين جداً في علاقاتكم الشخصية وأن تحترموا بعضكم البعض كأشخاص مقدّسين، كصوّر لله. لا تتأثروا أبداً بالجسد أو الجمال، بل بالروح فقط.

انتبهوا إلى الشعور بالمحبة، لأنه عندما لا يدفأ القلب بالصلاة النقية، فإن المحبة تتعرض لخطر أن تصبح جسدية وغير طبيعية قد تظلم النوس وتلتهم القلب. يجب أن نتحرى يومياً ما إذا كانت محبتنا تنبع من اتحاد المحبة التي نتشاركها مع المسيح ومن ملء محبتنا للرب. إن اليقظين الذين يحافظون على محبتهم نقية يكونون في مأمن من أفخاخ الشرير الذي يحاول تدريجياً تحويل المحبة المسيحية إلى حب مبتذل وعاطفي.

## التمييز

أحثكم على أن تظهروا التمييز والانتباه في كل شيء. تجنّبوا التطرف. التقشف يعتمد على الفضائل. إن الذين ليس لديهم الكثير من الفضائل ويحاولون مواكبة الكمال، ويحاولون العيش في الشظف مثل النساك الكبار، معرضون لخطر أن يصبحوا مستكبرين ثم يسقطون. هذا هو السبب في أنه عليكم المضي قدماً بحذر وعدم استنفاد جسدكم بأعمال تفوق قدراتكم. تذكروا أن غاية النسك الجسدي هي مساعدة الروح على الوصول إلى الكمال الذي يتحقق في المقام الأول من خلال جهاد الروح. لا تشدوا الخيط أكثر مما يتطلبه الأمر. ليس عليكم أن تجبروا الله لكي يمنحكم عطاياه. كل ما نحصل عليه ناله من الرحمة الإلهية.

لا تسعوا لأن تصعدوا إلى الأعالي من خلال الحرمان الكبير إلا إذا كنتم قد اقتنيتم الفضائل المتناسبة، لأنكم عندئذٍ تخاطرون بالوقوع في الوهم بسبب الغرور والجرأة. إن الذين يسعون للحصول على المواهب الإلهية والرؤى السامية وهم مثقلون بالأهواء، هم حمقى ومتفخرون، وبالتالي مخدوعون. يجب أن يكون همهم الأول تطهير ذواتهم. النعمة الإلهية ترسل الهدايا كمكافأة للذين تطهروا من الأهواء. تأتي النعمة إليهم بصمت وفي وقت لا يعرفونه.

## الكبرياء

غرور العقل هو الكبرياء الشيطاني، الذي ينكر الله ويجدّف على الروح القدس، وهذا هو سبب صعوبة علاجه. إنه ظلمة عميقة تمنع عيني الروح من رؤية النور الذي بداخلها والذي يقود إلى الله كما التواضع والرغبة في الخير.

من ناحية أخرى، إن غرور القلب ليس نتاج الكبرياء الشيطاني، بل هو ينشأ عن مجموعة متنوعة من الظروف والأحداث: الثروات، والثناء، والتكريم، والمواهب الروحية أو الجسدية (الذكاء العالي، الجمال، القوة، المهارة، وغيرها). كل هذه تنفخ رؤوس الحمقى فيصبحون بالتالي فارغين، لكن ليسوا ملحدين. في كثير من الأحيان، يرحم الله هؤلاء الناس، ويؤبّخون بشكل من أشكال التوبيخ الإلهي ويعودون إلى رشدهم. تتحطم قلوبهم، ويكفون عن طلب المديح والعبثيات، وبهذه الطريقة يُعالجون. إن مهمتكم الروحية هي فحص قلبكم. هل الكبرياء مستكينة هناك كالأفعى السامة، كالهوى الذي يضر الكثير من الشر، الذي يميّز كل فضيلة ويسمّم كل شيء؟ حولوا كل انتباهكم إلى هذا الشر الانطوائي. يجب أن يكون هذا الاستجلاء ليلاً ونهاراً مهمتكم المستمرة.

أعتقد أنه من الصحيح أن نقول إن كل نضالنا الروحي يتكوّن من البحث عن الكبرياء والقضاء عليها مع كل نسلها. إذا تخلصنا منها وأرسيها التواضع في قلوبنا، فعندئذٍ يكون لدينا كل شيء. لأنه حيثما يوجد تواضع حقيقي شبيه بالمسيح، يكون المكان الذي تُجمع فيه كل الفضائل التي ترفعنا إلى الله.

## النبل المسيحي

بحسب وصية الرب، على المسيحيين أن يصيروا قديسين وكاملين. إن الكمال والقداسة محفوران أولاً في أعماق نفوس المسيحيين ومن هناك يتمّ ختم أفكارهم ورغباتهم وأقوالهم وأفعالهم. بهذا، تفيض نعمة الله التي تكمن في روح الإنسان إلى كل صفاته الخارجية.

على المسيحيين أن يكرّموا الجميع. يجب أن تعكس أقوالهم وأعمالهم نعمة الروح القدس التي تسكن بداخلهم، كشهادة على حياتهم المسيحية ومجد الله. إن المتّزنين في الكلام متّزنون أيضاً في الأفعال. إن الذين يفكرون قبل أن يتكلّموا يفكرون أيضاً في الأفعال التي هم على وشك القيام بها ولا ينتهكون أبداً حدود السلوك الصالح والفاضل. يتكلم المسيحيون بلطف ولياقة ولباقة. هذا ما يولد المحبة والسلام والفرح. من ناحية أخرى، إن الكلام الفارغ يؤدي إلى الكراهية والعداء والحزن والجدال والاضطراب وحتى الحرب.

لذلك، لنكُن دائماً مهذبين. لا ندعُ الكلمات الشريرة تعبر شفاهنا، تلك الكلمات التي لا تتوافق مع نعمة الله؛ بل الكلمات اللطيفة دائماً، الصالحة، والشاهدة على فكر المسيح ونضجنا الروحي.

## التسبيح

على المسيحيين دائماً أن يسبّحوا الله بجسدهم وأرواحهم. كلاهما يخصّ الله بكل الأحوال، وبالتالي ليس لدينا السلطة لإهانتها أو إفسادها. نظراً لكونهما مقدسين ومُجَلِّين، يجب معاملتهما بامتنان كبير. إن الذين يتذكرون أن جسدهم وروحهم ينتميان إلى الله يكتسبون توقيراً وخوفاً باطنياً منهما، وهذا يجعلنا نحافظ عليهما طاهرين وخاليين من كل تلوث وفي شركة دائمة مع الله، الذي بواسطته يتم تقديسهما وتحسينهما.

نحن نسبّح الله بالجسد والروح أولاً عندما نتذكر أننا قدسنا به واتحدنا به؛ ثم عندما نوحّد إرادتنا مع إرادة الله، حتى نفعل دائماً ما يتوافق مع مشيئته الصالحة والفرضية والكاملة. إذا كنا مثل هؤلاء الناس، فإننا لا نحيا لأنفسنا، بل لله. نحن نعمل لملكوت الله على الأرض. نسبّح الله على كل شيء أقوالاً وعملاً. إن أفعالنا التي تصبّ في مصلحة الآخرين هي سبب لتسبيح الاسم الإلهي. إن حياتنا، المستنيرة بالنور الإلهي، تتلألأ كالنور الساطع. وهكذا، تصبح طريقتنا في الحياة دليلاً إلى الله لمن لم يعرفه بعد.